

الداء والدواء

اللقاء السابع عشر

☐ ملخص كتاب الداء والدواء: أراد الكاتب ابن القيم الجوزية -رحمه الله- إصلاح النفس البشرية وحمائتها قدر الإمكان من المعاصي والذنوب، فحاض رحلة في أغوار النفوس، وذكر المعاصي -وهي التي عبر عنها بالداء والمرض- وأسباب اقترافها، إلى جانب الآثار السلبية المترتبة على الفرد وعلى الجماعة، ثم بين الدواء والحل الأمثل للشفاء من ذلك الداء مستعيناً بالقرآن والسنة.

﴿فصلُ المعاصيِ عدوٌ لدودٌ﴾

☐ وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَمَّا مَدَدٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَمُدُّ بِهِ عَدُوَّهُ عَلَيْهِ، وَجَيْشٌ يُقَوِّيه بِهِ عَلَى حَرْبِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ابْتَلَى هَذَا الْإِنْسَانَ بِعَدُوٍّ لَا يُفَارِقُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا يَنَامُ مِنْهُ وَلَا يَعْمَلُ عَنْهُ، يَرَاهُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ، يَبْدُلُ جَهْدَهُ فِي مُعَادَاتِهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَا يَدْعُ أَمْرًا يَكِيدُهُ بِهِ يَقْدِرُ عَلَى إِبْصَالِهِ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ، وَبَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِنِي جِنْسِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، فَقَدْ نَصَبَ لَهُ الْحَبَائِلَ، وَبَعَى لَهُ الْعَوَائِلَ، وَمَدَّ حَوْلَهُ الْأَشْرَاقَ، وَنَصَبَ لَهُ الْفِخَاحَ وَالشِّبَاكَ، وَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: دُونَكُمْ عَدُوَّكُمْ وَعَدُوَّ أَبِيكُمْ لَا يُفُوتُكُمْ وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ الْجَنَّةَ وَحَظُّكُمْ النَّارَ، وَنَصِيبُهُ الرَّحْمَةَ وَنَصِيبُكُمْ اللَّعْنَةَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَا جَرَى عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْحُزْبِيِّ وَالْإِنْبَعَادِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِسَبَبِهِ وَمِنْ أَجْلِهِ، فَابْتَدَلُوا جَهْدَكُمْ أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَنَا فِي هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، إِذْ قَدْ فَاتَنَا شَرِكَةٌ صَالِحِيهِمْ فِي الْجَنَّةِ. وَقَدْ أَعْلَمْنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ عَدُونَا وَأَمْرَنَا أَنْ نَأْخُذَ لَهُ أَهْبَتَهُ وَنُعِدَّ لَهُ عُدَّتَهُ.

إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلى، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار. صحيح مسلم

☐ وَلَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ آدَمَ وَبَنِيهِ قَدْ بُلُوا بِهَذَا الْعَدُوِّ وَأَنَّهُ قَدْ سُلِطَ عَلَيْهِمْ أَمَدُهُمْ بِعَسَاكِرِ وَجُنْدٍ يَلْفُوهُمْ بِهَا، وَأَمَدَّ عَدُوَّهُمْ أَيْضًا بِجُنْدٍ وَعَسَاكِرٍ يَلْفَاهُمْ بِهَا، وَأَقَامَ سُوقَ الْجِهَادِ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي مَدَّةِ الْعُمُرِ الَّتِي هِيَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَخْرَةِ كَنَفْسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِهَا، وَاشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ وَعَدُّ مُؤَكَّدٌ عَلَيْهِ فِي أَشْرَفِ كُتُبِهِ، وَهِيَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَبَشِرُوا بِهَذِهِ الصَّفَقَةِ الَّتِي مَنْ أَرَادَ

أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهَا فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْمُشْتَرِي مَنْ هُوَ؟ وَإِلَى التَّمَنِ الْمَبْدُولِ فِي هَذِهِ السِّلْعَةِ، وَإِلَى مَنْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ هَذَا الْعَقْدُ، فَأَيُّ فَوْزٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ تِجَارَةٍ أَرْبِحُ مِنْهُ؟ ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ هَذَا الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ - تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ - وَأُخْرَى تُحِبُّوهَا نَصَرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ } [سُورَةُ الصَّفِّ: ١٠ - ١٣] .

☐ وَلَمْ يُسَلِّطْ سُبْحَانَهُ هَذَا الْعَدُوَّ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ، إِلَّا لِأَنَّ الْجِهَادَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَأَهْلُهُ أَرْفَعُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ دَرَجَاتٍ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ وَسَيْلَهُ، فَعَقَدَ سُبْحَانَهُ لِيَا هَذِهِ الْحَرْبِ لِحِلَاصَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْقَلْبُ الَّذِي مَحَلُّ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَعُبُودِيَّتِهِ وَالْإِحْلَاصِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، فَوَلَّاهُ أَمْرَ هَذِهِ الْحَرْبِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُفَارِقُونَهُ { لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [سُورَةُ الرَّعْدِ: ١١] .

☐ يَعْتَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كُلَّمَا ذَهَبَ بَدَلٌ جَاءَ بَدَلٌ آخَرَ يُتَّبِعُونَهُ وَيَأْمُرُونَهُ بِالْخَيْرِ وَيَحْضُونَهُ عَلَيْهِ، وَيَعْدُونَهُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ وَيُصَبِّرُونَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا هُوَ صَبْرٌ سَاعَةٍ وَقَدْ اسْتَرَحْتِ رَاحَةَ الْأَبَدِ.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ولا يزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تَوَزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا، وَتَحْرِضُهُ عَلَيْهَا، وَتُرْعِجُهُ مِنْ فِرَاشِهِ وَمَجْلِسِهِ إِلَيْهَا، وَلَا يَزَالُ يَأْلَفُ الْمَعَاصِي، وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا، حَتَّى يَرْسِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينَ فَتَوَزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا؛ فَالْأَوَّلُ قَوَى جِنْدِ الطَّاعَةِ بِالْمَدَدِ فَصَارُوا مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِهِ، وَهَذَا قَوَى جِنْدِ المَعْصِيَةِ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ».

☐ ثُمَّ أَمَدَّهُ سُبْحَانَهُ بِجُنْدٍ آخَرَ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ، فَازْدَادَ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِ، وَمَدَدًا إِلَى مَدَدِهِ، وَعُدَّةً إِلَى عُدَّتِهِ، وَأَمَدَّهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ وَزِيَارًا لَهُ وَمُدِيرًا، وَبِالْمَعْرِفَةِ مُشِيرَةً عَلَيْهِ نَاصِحَةً لَهُ، وَبِالْإِيمَانِ مُثَبِّتًا لَهُ وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا، وَبِالْيَقِينِ كَاشِفًا لَهُ عَنِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، حَتَّى كَانَتْهُ يُعَايِنُ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ وَحَزْبَهُ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ، فَالْعَقْلُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَيْشِهِ، وَالْمَعْرِفَةُ تَصْنَعُ لَهُ أُمُورَ الْحَرْبِ وَأَسْبَابَهَا وَمَوَاضِعَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، وَالْإِيمَانُ يُثَبِّتُهُ وَيَقْوِيهِ وَيُصَبِّرُهُ، وَالْيَقِينُ يُقَدِّمُ بِهِ وَيَحْمِلُ بِهِ الْحَمَلَاتِ الصَّادِقَةَ.

أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ

✉ قال العلامة ابن رجب رحمه الله تعالى: (فالقلب ملك الجوارح وسلطانها، والجوارح جنوده ورعيته المطيعة له، المنقادة لأوامره، فإذا صلح الملك صلحت رعاياه وجنوده المطيعة له المنقادة لأوامره، وإذا فسد الملك فسدت جنوده ورعاياه المطيعة له المنقادة لأوامره ونواهيها).

✉ فَإِنَّ أَعْمَالَ جَوَارِحِهِ لَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الْقَلْبِ، وَمَعْنَى اسْتِقَامَةِ الْقَلْبِ: أَنْ يَكُونَ مُتَمَلِّئًا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَحُبِّهِ، وَحُبَّةِ طَاعَتِهِ، وَكَرَاهَةِ مَعْصِيَتِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَخَشْيَتِهِ، وَمَهَابَتِهِ، وَرَجَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ.

☞ ثُمَّ أَمَدَّ سُبْحَانَهُ الْقَائِمَ بِهَذِهِ الْحَرْبِ بِالْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَجَعَلَ الْعَيْنَ طَلِيعَتَهُ، وَالْأُذُنَ صَاحِبَ خَبْرِهِ، وَاللِّسَانَ تُرْجُمَانَهُ، وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ أَعْوَانَهُ، وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ يَسْتَعْفِرُونَ لَهُ وَيَسْأَلُونَ لَهُ أَنْ يَقْبِيَهُ السَّيِّئَاتِ وَيُدْخِلَهُ الْجَنَّاتِ، وَتَوَلَّى سُبْحَانَهُ الدَّفْعَ وَالِدِّفَاعَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ وَقَالَ: هُوَ لَاءِ حِزْبِي، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المُجَادَلَةُ: ٢٢].

☞ وَهُوَ لَاءِ جُنْدِي {وَإِنَّ جُنْدَنَا هُمُ الْعَالِيُونَ} [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١٧٣].

☞ وَعَلَّمَ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ، فَجَمَعَهَا لَهُمْ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٢٠٠].

☞ وَلَا يَتِمُّ أَمْرُ هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ، فَلَا يَتِمُّ الصَّبْرُ إِلَّا بِمُصَابِرَةِ الْعَدُوِّ، وَهُوَ مُقَاوَمَتُهُ وَمُنَازَلَتُهُ، فَإِذَا صَابَرَ عَدُوُّهُ اِحْتِجَاجٌ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَهِيَ الْمُرَابِطَةُ، وَهِيَ لُزُومُ ثَغْرِ الْقَلْبِ وَحِرَاسَتُهُ لِغَلَا يَدْخُلُ مِنْهُ الْعَدُوُّ، وَلُزُومُ ثَغْرِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ، فَهَذِهِ الثُّغُورُ يَدْخُلُ مِنْهَا الْعَدُوُّ فَيَجُوسُ خِلَالَ الدِّيَارِ وَيُفْسِدُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، فَالْمُرَابِطَةُ لُزُومُ هَذِهِ الثُّغُورِ، وَلَا يُحَلِّي مَكَانَهَا فَيُصَادِفَ الْعَدُوَّ الثَّغَرَ خَالِيًا فَيَدْخُلُ مِنْهُ.

☞ فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَعْظَمُهُمْ جَمَاعَةً وَحِرَاسَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ أَخْلَوْا الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرُوا بِلُزُومِهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَدَخَلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، فَكَانَ مَا كَانَ.

☞ وَجَمَاعُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَعَمُودُهَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَنْفَعُ الصَّبْرُ وَلَا الْمُصَابِرَةُ وَلَا الْمُرَابِطَةُ إِلَّا بِالتَّقْوَى، وَلَا تَقُومُ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى سَاقِ الصَّبْرِ.

١٣١ التِّقَاءُ الْجَيْشَيْنِ فَانْظُرِ الْآنَ فِيكَ إِلَى التِّقَاءِ الْجَيْشَيْنِ، وَاصْطِدَامِ الْعَسْكَرَيْنِ وَكَيْفَ تُدَالُ مَرَّةً، وَيُدَالُ عَلَيْكَ أُخْرَى؟ أَقْبَلَ مَلِكُ الْكُفْرَةِ بِجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ، فَوَجَدَ الْقَلْبَ فِي حِصْنِهِ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلُوكِيهِ، أَمْرُهُ نَافِذٌ فِي أَعْوَانِهِ، وَجُنْدُهُ قَدْ حَفُّوا بِهِ، يُقَاتِلُونَ عَنْهُ وَيُدَافِعُونَ عَنْ حَوَازِينِهِ، فَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ الْهَجُومَ عَلَيْهِ إِلَّا بِمُخَاوَرَةٍ بَعْضِ أَمْرَائِهِ وَجُنْدِهِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ عَنْ أَحْصَى الْجُنْدِ بِهِ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً، فَقِيلَ لَهُ: هِيَ النَّفْسُ، فَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: ادْخُلُوا عَلَيْهَا مِنْ مُرَادِهَا، وَانْظُرُوا مَوَاقِعَ مَحَبَّتِهَا وَمَا هُوَ مَحْبُوبُهَا فَعِدُّوْهَا بِهِ وَمَثُوهَا إِيَّاهُ وَانْقَشُوا صُورَةَ الْمَحْبُوبِ فِيهَا فِي يَفْظِهَا وَمَنَامِهَا، فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَسَكَتَتْ عِنْدَهُ فَاطْرَحُوا عَلَيْهَا كَلَالِيْبَ الشَّهْوَةِ وَحَطَّاطِيْفَهَا، ثُمَّ جَرُّوْهَا بِهَا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا خَامَرَتْ عَلَى الْقَلْبِ وَصَارَتْ مَعَكُمْ عَلَيْهِ مَلِكُكُمْ تَغْرُ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانَ وَالْفَمَ وَالْيَدَ وَالرِّجْلَ، فَرَابِطُوا عَلَى هَذَا التُّغُورِ كُلِّ الْمُرَابِطَةِ، فَتَمَّتْ دَخَلْتُمْ مِنْهَا إِلَى الْقَلْبِ فَهُوَ قَبِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ، أَوْ جَرِيحٌ مُنْحَنٌ بِالْجِرَاحَاتِ، وَلَا تُخْلُوا هَذِهِ التُّغُورَ، وَلَا تُمَكِّنُوا سَرِيَّةً تَدْخُلُ فِيهَا إِلَى الْقَلْبِ فَتُخْرِجَكُمْ مِنْهَا، وَإِنْ غَلِبْتُمْ فَاجْتَهِدُوا فِي إِضْعَافِ السَّرِيَّةِ وَوَهْنِهَا، حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَصَلَتْ ضَعِيفَةً لَا تُعْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

١٣٢ تَغْرُ الْعَيْنِ فَإِذَا اسْتَوْلَيْتُمْ عَلَى هَذِهِ التُّغُورِ فَاْمْنَعُوا تَغْرَ الْعَيْنِ أَنْ يَكُونَ نَظْرُهُ اِعْتِبَارًا، بَلِ اجْعَلُوا نَظْرَهُ تَقَرُّجًا وَاسْتِحْسَانًا وَتَلَهِيًّا، فَإِنْ اسْتَرَقَ نَظْرُهُ عِبْرَةً فَأَفْسِدُوهَا عَلَيْهِ بِنَظْرِ الْعُقْلَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ وَالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَعْلَقُ بِنَفْسِهِ وَأَخْفُ عَلَيْهِ، وَدُونَكُمْ تَغْرُ الْعَيْنِ، فَإِنَّ مِنْهُ تَنَالُونَ بُعَيْتَكُمْ، فَإِنِّي مَا أَفْسَدْتُ بَنِي آدَمَ بِشَيْءٍ مِثْلِ النَّظْرِ، فَإِنِّي أَبْدُرُ بِهِ فِي الْقَلْبِ بَدْرَ الشَّهْوَةِ، ثُمَّ أَسْقِيهِ بِمَاءِ الْأُمْنِيَّةِ، ثُمَّ لَا أَزَالُ أَعِدُّهُ وَأُمْنِيَّةِ حَتَّى أَقْوِي عَزِيمَتَهُ وَأَقْوِدَهُ بِرِمَامِ الشَّهْوَةِ إِلَى الْإِنْخِلَاعِ مِنَ الْعِصْمَةِ، فَلَا تُحْمِلُوا أَمْرَ هَذَا التُّغْرِ وَأَفْسِدُوهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، وَهَوِّنُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَقُولُوا لَهُ: مِقْدَارُ نَظْرَةٍ تَدْعُوكَ إِلَى تَسْبِيحِ الْخَالِقِ وَالتَّأَمُّلِ لِبَدِيعِ صَنِيعِهِ، وَحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي إِمَّا خُلِقَتْ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا النَّاطِرُ عَلَيْهِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لِكَ الْعَيْنَيْنِ سُدىً، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لِيَحْجُبَهَا عَنِ النَّظْرِ، وَإِنْ ظَفَرْتُمْ بِهِ قَلِيلَ الْعِلْمِ فَاسِدَ الْعَقْلِ، فَقُولُوا لَهُ: هَذِهِ الصُّورَةُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَقِّ وَمَجَلَّى مِنْ مَجَالِيهِ، فَادْعُوهُ إِلَى الْقَوْلِ بِالِاتِّحَادِ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ فَالْقَوْلُ بِالْحُلُولِ الْعَامِّ أَوْ الْخَاصِّ، وَلَا تَقْنَعُوا مِنْهُ بِدُونِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ بِهِ مِنْ إِخْوَانِ النَّصَارَى، فَمُرُوهُ حِينَئِذٍ بِالْعَقَّةِ وَالصِّيَانَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالرُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَاصْطَادُوا عَلَيْهِ وَبِهِ الْجُتْهَالَ، فَهَذَا مِنْ أَقْرَبِ خُلَفَائِي وَأَكْبَرَ جُنْدِي، بَلِ أَنَا مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ.

﴿فَصَلِّ نَعْرُ الْأُذُنِ﴾

﴿٣٤﴾ تُمْ اَمْنَعُوا نَعْرَ الْأُذُنِ أَنْ يَدْخَلَ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمْ الْأَمْرَ، فَاجْتَهِدُوا أَنْ لَا تُدْخِلُوا مِنْهُ إِلَّا الْبَاطِلَ، فَإِنَّهُ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ تَسْتَحْلِيهِ وَتَسْتَحْسِنُهُ، تَحَيَّرُوا لَهُ أَعْدَبَ الْأَلْفَاظِ وَأَسْحَرَهَا لِلْأَلْبَابِ، وَافْرَجُوهُ بِمَا هَوَى النَّفْسُ مَرْجَاً.

﴿٣٥﴾ وَأَلْفُوا الْكَلِمَةَ فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ إِصْغَاءً إِلَيْهَا فَزَجُّوهُ بِأَحْوَاتِهَا، وَكُلَّمَا صَادَفْتُمْ مِنْهُ اسْتَحْسَانَ شَيْءٍ فَاهْجُوا لَهُ بِذِكْرِهِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ هَذَا النَّعْرِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ كَلَامِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ كَلَامِ النَّصَحَاءِ، فَإِنْ غُلِبْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَخَلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَهْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَالْعَظَمَةِ بِهِ، إِمَّا بِادْخَالِ ضِدِّهِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا بِتَهْوِيلِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ حِيلَ بَيْنَ النَّفُوسِ وَبَيْنَهُ فَلَا سَبِيلَ لَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ حِمْلٌ يَثْقُلُ عَلَيْهِ لَا تَسْتَقِلُّ بِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِمَّا بِإِرْخَاصِهِ عَلَى النَّفُوسِ، وَأَنَّ الْاِسْتِغَالَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَ النَّاسِ، وَأَعَزُّ عَلَيْهِمْ، وَأَعْرَبُ عِنْدَهُمْ، وَرُبُونُهُ الْقَابِلُونَ لَهُ أَكْثَرُ، وَأَمَّا الْحَقُّ فَهُوَ مَهْجُورٌ، وَقَائِلُهُ مُعْرِضٌ نَفْسَهُ لِلْعَدَاوَةِ، وَالرَّابِحُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْلَى بِالْإِيْتَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتُدْخِلُونَ الْبَاطِلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ قَالِبٍ يَقْبَلُهُ وَيَخْفُ عَلَيْهِ، وَتُخْرِجُونَ لَهُ الْحَقَّ فِي كُلِّ قَالِبٍ يَكْرَهُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ.

﴿٣٦﴾ وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانظُرْ إِلَى إِحْوَانِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، كَيْفَ يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالِبِ كَثْرَةِ الْفُضُولِ، وَتَتَّبِعِ عَثْرَاتِ النَّاسِ، وَالتَّعْرِضِ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَالْقَاءِ الْفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَتُخْرِجُونَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَوَصَفَ الرَّبِّ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ - ﷺ - فِي قَالِبِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّكْثِيفِ، وَيُسَمُّونَ عَلُوَ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ وَمُبَابِنَتَهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ، تَحَيَّرًا، وَيُسَمُّونَ نُزُولَهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَقَوْلَهُ: مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيهِ، تَحَرُّكًا وَانْتِقَالًا، وَيُسَمُّونَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْيَدِ وَالْوَجْهِ أَعْضَاءَ وَجَوَارِحَ، وَيُسَمُّونَ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَفْعَالِهِ حَوَادِثَ، وَمَا يَقُومُ مِنْ صِفَاتِهِ أَعْرَاضًا، ثُمَّ يَتَوَصَّلُونَ إِلَى نَفْسِي مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ، وَيُوهُونَ الْأَعْمَارَ وَضَعْفَاءَ الْبَصَائِرِ، أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ - ﷺ - تَسْتَلْزِمُ هَذِهِ الْأُمُورَ، وَيُخْرِجُونَ هَذَا التَّعْطِيلَ فِي قَالِبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ ضَعْفَاءُ الْعُقُولِ يَقْبَلُونَ الشَّيْءَ بِلَفْظٍ وَيَرُدُّونَهُ بِعَيْنِهِ بِلَفْظٍ آخَرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١١٢] فَسَمَّاهُ زُخْرَفًا، وَهُوَ بَاطِلٌ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُزْخِرْفُهُ وَيُزَيِّنُهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَيُلْقِيهِ إِلَى سَمْعِ الْمَعْرُورِ فَيَعْتَرُّ بِهِ.

﴿٣٧﴾ وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ لَزِمَ نَعْرَ الْأُذُنِ، أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا مَا يَضُرُّ الْعَبْدَ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَيَمْنَعُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهَا مَا يَنْفَعُهُ، وَإِنْ دَخَلَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ أَفْسَدَهُ عَلَيْهِ.